بين الرافعي والعقاد

الأستاذ محمود محمد شاكر

— ٢ —

نقل الأستاذ الأديب سيد قطب في كلمته الثانية بعض ما نقده الرافعي في قصيدة للعقاد في ديوانه بعنوان (غزل فلسفي ؛ فيك من كل شيء) ، وذلك حين يقول في حبيبته :

فيك منّي ومن الناس ومن كلّ موجودٍ وموعودٍ تُؤام

فقال الأستاذ قطب : فلا يرى الرافعي في هذا البيت الفريد إلا أن يقول : « قلنا فإن (من كلّ موجود) البق والقمل والنمل والخنفساء والوباء والطاعون والهيضة وزيت الخروع والملح الانجليزي إلى واوات من مثلها لا تعدّ ، أفيكون هذا كله في حبيب إلا على مذهب العقاد في ذوقه ولغته وفلسفته ؟ »

ثم يعودُ فيقول : «إن هذا المثال هو «مصداق رأيي في أن الرافعي أديب الذهن لا أديب الطبع ، وأنه تنقصه « العقيدة » ! التي هي وليدة الطبع أولاً ؛ فأيّ « طبع » سليم يتجه إلى تفسير بيت غزليّ في معرض إعجاب شاعر بحبيبته ، واستغراق في شمول شخصيتها بأن « كلّ موجود » هو البق والقمل والنمل .. الخ » غافلاً عما في هذا الاحساس من « حياة » ! « واستكناهٍ » ! لجوهر الشخصية ، و « خيالٍ بارع » تثيره طبيعة فنية ، فيرى في هذه المرأة من متنوّع الصفات ومختلف النزعات وشتى المزايا عالماً كاملا من كل موجودٍ وموعود

أحد أمرين :

إما أن الرافعي ضيق الاحساس مغلق الطبع بحيث لا يلتفت إلى مثل هذه اللفتات الفنية بالشعور

وإما أنه يدرك هذا الجمال ، ولكنه يتلاعبُ بالصور الذهنية وحدها ، غافلاً عما أحسّه وأدركه

وهو في الحالة الأولى مسلوب « الطبع » وفي الثانية مسلوب « العقيدة ! » فأيهما يختارُ له جماعة الأصدقاء »

ثم أتمّ الأستاذ علينا نعمة نقده بأن قال « إن هذا المثال « يمثل تلاعب الرافعيّ بالصور الذهنية ، واستغلاق طبعه دون تملي الإحساس الفني »

وقد آثرنا أن ننقل في كلامنا كلّ هذا لا نبدّله ولا نحرّفه لنقطع بذلك مادة الشك في صحة النقل من كلام الأستاذ قطب ، وليجتمع للقارئ فكرهُ على رأي متصل حين ينظرُ في أعقاب كلامنا بالتعرُّف أو الانكار

ونحن حين قرأنا قصيدة العقاد لأول مرة في مجلة المقتطف — (يناير سنة ١٩٣٣) زعمنا أنها قصيدة مؤلّفة من مادة غير مادة الشعر ، وأن الغزل الفلسفي الذي فيها حديث يتهالك ، والفلسفة منطق يتماسك ، فهي على ذلك ليست من شعر ولا فلسفة . وهذا هو بديهة الرأي لمن يقرأ هذه القصيدة ويتدبر معانيها ، ويقيسها إلى غرض صاحبها فإنه سماها أول ما سمى « غزلاً فلسفياً » ثم أتبع هذا — وفي رأسها — مما يشبه التفسير لهذا العنوان ، وما يتضمن نحوي القصيدة ، ويحدد جملة معانيها ، وذلك قوله : « فيك من كل شيء »

— ولسنا الآن بسبيل من نقد القصيدة كلها ، وبيان ما أشرنا إليه قبل في أثنائها وتضاعيفها ، وإنما نجتزيء بالقول في البيت الذي نقده الرافعي ، ثم عقب على نقده الأستاذ سيد قطب بما شاء له «طبعه» المفتوح غير المغلق ، و«عقيدته» الكاملة غير المسلوبة ، و « خياله البارع » غير المتخلف

وهذا البيت بعينه :

فيك منّي ومن الناس ومن كلّ موجودٍ وموعودٍ تُؤام

إنما هو تكرار لقوله في صدر القصيدة : « فيك من كل شيء » حين أراد الشاعر أن يزيده بياناً ووضوحاً ، ويجلوه جلاء المرآة لتصف شخص صاحبته ، أو كما قال الأستاذ القطب (لاستكناه — جوهر شخصيتها !)

وقد ذهب الرافعي في نقد هذا البيت مذهب العربي حين يسمع الكلام العربيّ لا يتحرف بألفاظه إلى غير معانيها ، ولا يتسع في معاني الألفاظ بغير دلالة ظاهرة أو مُسوِّغ مُضْمَر ، ولا يقبض من معانيها إلا بمثل ذلك مما يجيز انقباض بعض معاني اللفظ عن سائره . وقد قال العقاد لصاحبته في الغزل الفلسفيّ « فيك من كلّ شيء » و « فيك من كل موجود » . والعرب

والفلاسفة جميعاً يزعمون أن لفظ (كلّ) إذا دخل على النكرة أوجب عموم أفرادها على سبيل الشمول دون التكرار . فكذلك أوجب الشاعر على صاحبته أن يشمل (جوهر شخصيتها) جزءاً من كلّ ما يمكن أن يسمى (شيئاً) ، ومن كل ما يسوغ أن يسمى (موجوداً وموعوداً) . وهذا الاطلاق من (فيلسوف يتغزّل) يقتضى شمول الأفراد من (كلّ شيء) ، ومن (كلّ موجود) . وليس يشك أحد — ممن لم يسلبهم الله « الطبع » و « العقيدة » ولم يحرمهم « الخيال البارع » — فى أن ما ذكره الرافعيّ فى كلامه — من البق إلى الملح الانجليزى — شيء من الأشياء وموجود من الموجودات . والفيلسوف حين يتغزل لن يريد هذا بغير شك ، ولكن أين تذهب بمعنى اللفظ (كلّ) فى العربية ؟ وفى حدود الألفاظ التى تدور على ألسنة الفلاسفة ؟ وأى دلالة توجب قبض معنى الشمول من هذا اللفظ ؟ أو أىّ مُسَوِّغ يجيز الحد من الاحاطة التى يقتضيها هذا الحرف فى مجرى قول الشاعر « فيك من كل شيء » وفيك « من كل موجود » ؟ !

هذا بعض القول فى فساد ألفاظ هذا البيت ، وبطلان معنى الفلسفة فيه . ولا يفوتنى فى هـذا الموضع أن أدل على موضع الضعف فى فهم الأستاذ قطب لكلام الرافعى . فالرافعى يقول : « قلنا ، فإن من — كل موجود — البق ... الخ » ، والأستاذ الأديب البارع يقول وكأنه يشرح معنى الرافعى : « فأى طبع سليم يتجه إلى تفسير بيت غزلى ... بأن « كل موجود » هو البق والقمل ... الخ » ؟ غافلاً عما فى هذا الإحساس من « حياة » و « خيال بارع » ، تثيره طبيعة فنية ، فيرى فى هـذه المرأة من متنوع الصفات وشتى المزايا عالماً كاملاً من كل موجود وموعود » . والرافعى رحمه الله لم يقُل إن (كل موجود) هو البق ... الخ ، وإنما قال إن من (كل موجود) ، أى من أفراد الموجودات ما يسمى بقّاً ... الخ ، فالحرف (من) فى كلام الرافعى ليس هو الحرف (من) الذى فى شعر العقاد حتى يجوز ما ذهب إليه الأستاذ قطب بما ساء من تعليقه

وقد أطلت القول فى تقرير نقد توحى بصحته سلامة الفطرة ، وحسن الذوق ، وصفاء القريحة ، وبوجبه اصطلاح المنطق ، وحد الكلام ، وإتقان الفلسفة ، ويقتضيه ما ذهب الشاعر يسرده مما هو « فى صاحبته » معدداً مبيناً مفصلاً حتى انتهى إلى إجمال المعانى فى هذا البيت . فقد قال لها : فيك من الشمس والبدر ، ومن الربيع والشتاء ، ومن غناء الطير ونوح الحمام ، ومن انسياب الماء ، ومن طبائع الوحش ، ومن حركة الأسماك ، وفيك من جوارح الطير ، ومن النعام ، ومن نار الحيا تين ، ومن الموت الزؤام ، ومن نقص الدنيا ، وكمال الآخرة ، ومن الملائكة ، ومن الشياطين ، ومن الخمر ، ومن القوت ، ومن الماء ، ومن الجوع ، ومن الأرض ، ومن السماء ، ومن عمل الأيام والدهور ، ومن الهندسة ومن الفن ... ثمّ

« فيك منى ومن الناس ومن كل موجود وموعود تؤام » !!

أفلا يدل هذا على أن الشاعر الفيلسوف كلّ التفصيل فرّى بالجملة فى (كل شيء) من (موجود وموعود) بعد الذى تعب فى بيانه وتفصيله وذكره وتمداده ؟ ؟ وأى شيء بقى له لم يعدده من متنوع الصفات ومختلف النزعات وشتى المزايا والعالم الكامل » ! إلا هَنَاتٌ هينات كذا وكذا ... وما ذكر الرافعى

هذا ... وقد اقتصر الأستاذ على نقل بعض كلام الرافعى فى نقد هذا البيت ونحن نتمه للقراء بعد ذلك :

« إن ذلك المعنى الذي بَنى عليه هذا المسكين غزلَهُ الفلسفى قد مرّ فى ذهن أعرابىّ لم يتعلّم ولم يدرس الفلسفة ، ولا قرأ الشعر الإنجليزى والفرنسى والألمانى والفارسى ، وليس له إلا ذوقه وسليقته وطبيعته الشعرية ، فصفى المعنى تصفية جاءت كأنها تقطر من الفجر على ورق الزهر بقوله :

فلو كنت ماء كنت ماء غمامة ولو كنت درًّا كنت من درة بكر
ولو كنت لهواً كنت تعليل ساعة
ولو كنت نوماً كنت إغفاءة الفجر
ولو كنت ليلاً كنت قمراء جُنَّبَتْ
نحوس ليالى الشهر ، أو ليلة القدر

(ولو كنت كنت) هذا أبدع عنوان لأجمل قصيدة فى فلسفة الغزل . وانظر كيف جعل الأعرابى حبيبته أصفى شيء ، وأغلى شيء ، وأسعد شيء ، وكيف صورها شعراً للشعر نفسه . ثم قابل هذا الذوق المصفى بذوق من يجعل حبيبته من كل شيء ، ومن كل موجود وموعود تؤاماً وزؤاماً وبلاء عاماً » انتهى كلام الرافعى

فإن شئت أن تعرف كيف يتناول الشعراء هذا المعنى المنسول من الشعر « فيك من كل شيء » فانظر حيث يقول جرير ، وهو فيما نعلم أول من افتتحه :

ما استوصف الناسُ (من شيء) يروقُهم
إلا أرى أمَّ عمْـرو فوقَ ما وَصَفوا
كأنهـا مُزنةٌ غرَّاء واضحة   أو درة لا يوارى ضوءها الصدف

وقد أحسنَ جرير تحديد المعنى وتجريده من اللغو (من شيء يروقهم) وجعل في صاحبته من ألوان الجمال ما تهفو إليه نفوس الناس على اختلاف أذواقهم وتباين أنظارهم . وكأن أبا نواس نظر إلى هذا المعنى حين قال :

لك وجه محاسن الخلق فيه   ماثلاتٌ تدعو إليه القُلوبا

على أن جريراً قد ناقض وأحال وأفسد ما استصلح من شعره حين رجع فقال في البيت الذي يليه : « كأنها مزنة ... أو درة » فإن هذا الحرف (كأن) للتشبيه ، والتشبيه يدعى قصور المشبه عن المشبَّه به ، وهو قد ادعى أنه يرى صاحبته فوق ما يصف الناس (من شيء) يروقهم أو يروعهم أو يفتنهم

ثم جاء مسلم بن الوليد بعقب جرير يقول :

مثالهـا زهرة الدنيا مصوَّرةً   في أحسن الناس إدباراً وإقبالا
أستودع العينَ منها كلما برزت   وجها من الحسن لا تُاقى له بالا
فالعين ليست تري شيئاً تسرُّ به   حتى تُريني لما استودعتُ تمثالا

ففارق مسلم جريراً حيث جعـل صاحبته (زهرة الدنيا مصورة) أي محاسنها وتهاويل جمالها ، وأنه يجد عندها تمثالاً لكل حسن تسر به العين

ثم جاء أبو نواس فألبس الشعر والمعنى من توليده وحسن مأخذه ولطف عبارته فقال :

لها من الظرْف والحسـن زائدٌ يتجددْ
فكل حُسْن بديع من حُسنها يتولَّدْ

ثم جاء أبو تمام فقصَّر ، ولم يحسن اختيار اللفظ ، وأضعف روح الشعر فيه فقال :

أنظر فما عاينت في غيره   من حَسَن فهو له كله

وتناوله البحتري ، فزاد فيه معنى ، ولم يجوِّد نسجه فقال :

وأهيف مأخوذ من النفس شكله   ترى العينُ ما تحتاجُ أجمعُ فيه

فالزيادة في قوله « مأخوذ من النفس شكله » وهي جميلة لولا شناعة قوله (مأخوذٌ) ، ولو عدل فيها إلى مثل نهجه في صفة الخمر

أفرغتْ في الزجاج من كل قلب   فهْي محبوبة إلى كلِّ نفس

لأجاد وبذَّ من سبقه . وقد فطن ابن الرومي إلى معنى البحتري فاتخذه لنفسه وسبَّق حين قال :

وفيك أحسن ما تسمو النفوس له   فأين يرغب عنك السمع والبصر

وقد قصر ابن الرومي في الشطر الأول عن المعنى الذي أراده البحتري ، ولكنه جاوز البحتري وربى به خلفه في مقابلة قوله (ترى العين ما تحتاجُ أجمعُ فيه) بمـا قال (فأين يرغبُ عنك السمعُ والبصرُ)

ثم أدار ابن الرومي هذا المعنى ونقَّله من سواه حين قال :

لاشيء إلا وفيـه أحسنهُ   فالعينُ منه إليـهُ تنتقلُ
فوائد العين منـهُ طارفةٌ   كأنمـا أخرياتهُ الأُوَلُ

ولقد كنت أتعجب لبيت العقاد كيف نزل مع كل هـذا الشعر ، وكيف خفي عنه موضع التقييد من مثل قول جرير « من شيء يروقهم » ، وقول مسلم (زهرة الدنيا) و « شيئاً تُسرُّ به » وما إلى ذلك ، ووجهتُـه مع سائر القصيدة فلم يزل مختلاً ناقصاً معوجاً لا يستوي . وزادني عجباً قوله في نهاية الشعر (تؤام) ، ولم أجد للفظ معنى ولا رأيت له وجهاً يتوجهُـه مع مقاصـد الغزل الفلسفي حتى وقعت لي أبيات ابن الرومي فإذا قوله (تؤام) ترجمة للفظ آخر هي لفظ (معاً) في قول ابن الرومي ينحو إلى هذه المعاني بعينها

فالعين لا تنفكُّ من نَظَـرٍ   والقلب لا ينفكُّ من وَطَـرِ
ومحاسن الأشياء فيكِ (معاً)   فَلاَ لتِيك مَلاَلَتِي بَصرِي
مُتعاتُ وجهكِ في بديهتها   جُدُدٌ وفي أعقابِها الأُخَـرِ
فكأنَّ وجهكِ من تجدُّدِه   مُتنقِّلٌ للعين في صُوَرِ

وقول ابن الرومي (ومحاسن الأشياء فيك معاً) هو عمل الشعر في معنى غسيلٍ قدَّم به العقاد لقصيدة غزل فلسفيٍّ وهو قوله : « فيك من كل شيء »

ورحم الله الصولي الذي يقول :